المحاضرة الخامسة + السادسة: أهم الوشاحين وتحليل نماذج من موشحاتهم

أهم الوشّاحين:

أولاً: ابن عبادة القزاز

هو أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، واشتهر بأنه شاعر المعتصم بن صمادح أمير المرية، وله فيه مدائح شعرية وموشحات، وفيه يقول:

لو لم أكن عبداً لآل صمادحٍ وفي أرضهم أصلي وعيشي ومولدي

لما كان لي إلا إليهم ترحّلٌ وفي ظلهم أمسي وأضحي وأغتدي

وكان يلم بالمعتمد بين عباد وله أيضاً فيه موشحات ومدائح يقول عنه ابن بسام: "من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما ذكر اسمه وحفظ نظمه في أوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الأندلس وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، ورقم ديباجه، ورصع تاجه، وكلامه نازل في المديح، أما ألفاظه في التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف" وربما قسا عليه ابن بسام في حكمه على مديحه لروعة موشحاته روعة فاق بها كل اقرانه في زمنه حتى قالوا إنه لم يشق له غباره واحد من معاصريه .

ومن أروع موشحاته موشح غزلي يتكون قفله من ستة أجزاء بينما يتكون غصنه من أربعة أجزاء، وقد أعجب به أبو بكر بن زهر حتى قال: "كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق من قوله في هذه الموشحة:

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم

ما أتم ما أوضحـــا قد عشقا قــد حُرِم

والألفاظ رشيقة رشاقة لا تحد، رشاقة كأنما تطير بها في خفة فتحدث عَبَقا، وهو عبق مصدره الدقة في انتخاب اللفاظ وانتخاب الوزن.

وله ، بجانب الموشحة التي مرت والتي أعجب ابن زهر بأحد أغصانها إعجاباً شديداً، أربع موشحات إحداها غزلية، والثانية في وصف عرض لأسطول المعتصم في البحر المتوسط يوم المهرجان، وفيها نفس العذوبة والرشاقة التي تقدمت في الموشحة السابقة، كقوله يصف سفن الأسطول:

وجـــــــاريات تجول مثلَ الجياد الســـــابقة

إنشاءُ مَـــــن في المحول ينشِي السحاب الوادقة

سمت على النجم طول منهـــــــا فروع باسقة

والموشحة الأخرى جمع فيها بنفس السلاسة والانسياب بين مديح المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد، وفي أحد اقفالها يقول:

بحرا نعم لمن ورد ظمآنْ سيفا نقم لمن مرد أو خانْ

ثانياً: يحيى بن بقى

هو أبوبكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبي القيسي المشهور باسم ابن بقى نسبة إلى جد أبيه، قال عنه صاحب القلائد: "هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعه، وأظهر ودائعه، وصار عصيه طائعه، إذا نظم أزرى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رَقم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، فصار قعيد صهوات، وقاطع فلوات، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلب دهر كواهي الجمان"، وهو أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقلاله وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو ان كثيراً من الأبواب أغلقت دونه مما جعله ينشد:

وَغَلَت إلى المغرب الأقصى فأعجزني نيل الرغائب حتى أبتُ بالندم

ولم يلبث أنْ فتح له باب بني عشرة قضاة سلا بالقرب من الرباط الحالية عاصمة المملكة المغربية، وكانوا بحوراً فياضة في الجود فغمروه بجودهم وخاصة يحيى بن علي بن القاسم

وأخاه أحمد قاضي سلا، فمكث في رابهما طويلاً، وأضفى عليهما من شعره وموشحاته دُرَراً كثيرة، وأول ما نقف عنده من موشحاته فيهم الموشحة التي مدح بها القاضي أحمد، والتي قال في خرجتها أو خاتمتها أبوبكر بن زهر: "ماحسدت وشاحاً على قوا إلا ابن بقى حين وقع له:

أما ترى أحمدْ في مجده العالي لا يلحــقُ

أطله المغربْ فــأرِنــا مثله يا مشرقُ

وهو لم يحسده على جمال صياغته فحسب، بل حسده أيضاً على روعة تصويره في الفقرة الثانية إذ جعل القاضي أحمد كوكباً يبزغ في المغرب ولا مثيل له في المشرق، ويتضح إبداعه في تصويره إذ يقول في أحد أغصان هذا الموشح متغزلاً بصاحبته:

عطا بِيتَيْهِ ومرّ كالضبي لبيده

فدلَّ عليه تكسر الحـلي بجيده

تفتير عينيه يسرع في بريِ عميده

وهو يجعلها كأنها ضبية حقيقية تمد عنقها لتناول الأوراق في الشجر مصوراً بذلك جمال جيدها، ويقول إنه إنما رآها لمحاً أو كاللمح إذ مرت سريعاً إلى منزلها ويصوره كأنه بيداء فلن يعود يراها، ويعود إلى نفسه فليست من الظباء بل هي من النساء إذ يسمع صوت الحلي بجيدها، ويقول ان تفتير عينيها الجميلتين يسرع في ضنا محبوبها،

كما نجد له أختاً له في ديوانه أيضاً وهي في مديح يحيى بن القاسم ممدوح ابن بقى الذي تفيّأ ظلاله، وفيها يقول:

صبرتُ والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفــاني

لمـــا جنى الورد ملء كفيه تشـــوفت وردتـــان إليه فحلّتا في ريا خديه

ثالثاً: أبو بكر بن زهر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبدالملك، وهو سليل أسرة طبية، ولد سنة507 بإشبيلة، وأخذ علم الطب عن أبيه وجده، وانفرد بالإمامة في عصره، ويقول ابن الأبار أنه كان يحفظ صحيح البخاري أسانيد ومتوناً، وكان له حظ وافر من الآداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدّث بمقامات الحريري عن أبيه، ويقول صاحب المطرب: كان بمكان من اللغة مكين، وكان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب مع معرفة جميع أقوال أهل الطب. وكان له منزلةعليا عند الموحدين، وخاصة عند الأمير يعقوب بن يوسف سلطان الموحدين (580-595) .

يقول صاحب المطرب عن الذي انفرد به وانقادت إليه طباعه وأصارت النبهاء أتباعه الموشحات، وقد طار في المغرب والمشرق موشحه:

أيها الساقي اليك المشتكى ** قـد دعونـاك وإن لـم تسمعأ

ونديـم همـت في غرتـه

وبشرب الـراح مـن راحته

كلما استيقظ من سكرتـه

جـذب الـزق اليه واتكـى ** وسقاني اربعـاً فـي اربـع

***

ما لعيني عشيت بالنظـر

أنـكرت بعـدك ضوء القمر

وإذا ما شئت فاسمع خبري

عشيت عيني من طول البكا ** وبكى بعضي على بعضي معي

***

غصن بـان مـال من حيث استوى

بـات مـن يهـواه مـن فرط الجوى

خفق الاحشاء مـوهـون القـوى

كلما فكر في البين بكـى ** ويحـه يبـكي لمـا لم يـقـعِ

***

ليس لي صبر ولا لي جـلـدُ

يـا لقـومي عـذلـوا واجتهدوا

أنـــكروا شكواي مما أجـــــدُ

مثل حـــالي حقـــها أن تشتكي ** كمـــد اليـــأس وذل الطمعِ

***

كبدي حـــري ودمعـــي يكـــفُ

تعـــرف الذنـــب ولا تعترفُ

أيـــها المعـــرض عـــما اصـــفُ

قـــد نمـــا حبي بقلبي وزكـــا ** لا تـــخـــل في الحب أنـــي مـــدعي

والموشحة تسيل خفة ورقة وعذوبة ورشاقة في نسق من بديع الالفاظ المختارة، وكأنها لا تتلاقى فحسب، بل تتعانق آخذاً بعضها بتلابيب بعض.

وله من موشحة أخرى:

هل تستعاد أيـــــامنا بالخليج أو ليـــاليـنا

إذ يُستفـــاد مـــن النسيم الأريج مسـك دارينـا

وإذ يكـــاد حسن المكان البهيج أن يحيينـــا

نهـترٌ اظله دوحٌ عليـــه انيـــق مـــورق فينان

والماء يجري وعـــائمٌ وغـــريق من جنا الريحان

والغصن والقفل جميعاً يزخران بشجىً يثير في القلب حنيناً بل جذوة متقدة من الحنين لأيام سعيدة هنيئة مرت وكأنها حلم من الأحلام لن يعود، لن تعود تلك الأيام والليالي ولا ما كان في حدائقها البهيجة من النسيم العطر حتى لكأنما كل شيء فيها كان يلقاهم بالتحيات والبسمات، وماء نهر إشبيلية يجري من تحتهم وفروع الأشجار وأغصانها المورقة تظلله، والرياحين بين سابح وغريق، كل ذلك سقط من يد ابن زهر وهو مولّه مشوق أعظم شوق، حتى لكأنما نتزع منه انتزاعاً.

وله موشحة أخرى يقول فيها:

سدلنَ ظلام الشعور على أوجهٍ كالبدورْ

سفرن فـــلاح الصباح

ضحكنَ ابتسام الصباح

كأن الذي في النحور تخيرنَ منه الثغورْ

والصور طريفة إذ يجمع في غزله والإعجاب بجمال صواحبه ظلام الشعور وبدور او أقمار الوجوه ويضيف أنهن سفرنَ ونحينَ النقاب عن وجوههم فأضاء الصباح، وضحكن وابتسمت ثغورهن ابتسام زهر الأقاح الذي طالما شبه به الشعراء الثغور لنصاعة بياضه، ويفجؤنا ابن زهر بما ملأ نفسه حيرة، إذ ينتقل بصره بين ثغورهن وعقود اللآلئ التي تزدان بها نحورهن فيخال كأنهن تخيرن ثغورهن من تلك اللآلئ البهيجة.